ذكرى الايام الماضية

كما يقال فان المادة الادبية ، التي يبدو الخطأها (او امتيازاتها ..) واضحة وقاهرة ، فان متلقيها تكون له الفرصة متاحة لاتخاذ موقف منها : معها او عليها . بينما المادة التي تتراجع الخطأها وامتيازاتها داخل العلاقات العالمة في العمل الادبي ، فانها يلتقي من حب المتلقي او رفضه . في هذا الضوء ، يكمن نجاح قصص « ذكرى الايام الماضية » لرشاد ابو شاور .

فليس عصيا على القارىء ابدا ، ان يلتفت لكون هذه القصص كلاسيكية ، بالمعنى المألوف. وتشكو من سردها البائد ، غير الحي في اكثر من مكان. وتعاني من الحوار الارتجالي، المتصل. وان القصص كذلك عبارة عن لقطات متداخلة ، هي رجع لقراءات سابقة ، لذلك تبدو القصص ناقصة ، لا يسندها غير الاخلاص الذاتي العميق، الذي يحرك كاتبها ، ويلح عليه . وكذلك الحشو والتكرار في اكثر من جانب ،وهو عوة اطار متعددين لان يكونوا في قلب القصة ، في رؤية روائية واضحة ليس ما يشفع لها .

على ان هذه الملاحظات السالبة على الكتاب الاول للمؤلف ، لا تنفي امتيازاته الاخرى، فهذا الكتاب يقع في دائرة النجاح ، حيث الحب والرفض ممكنان .

ورغم حساسيتنا ازاء الاعمال التي تتخذ من المقاومة موضوعا لها ، فان قصص رشاد ابو شاور تظل تملك لحظات من الحقيقة ، صالحا بصدق نفسي وشفافية فنية ، مرة ، وبسرعة وتسجيل مرات .

تكفي الاشارة في هذا المجال الى ثلاث قصص، هي خير ما في المجموعة ، ونستحق ان تكون مبررها وشفافتها .

العصافير : يوجد فيها الكاتب مشاعر الانسان باشياء الطبيعة . المقاتل الذي يمكث قريبا من النهر في انتظار عودة رفاقه ، يفاجأ بطائر دوري يضطرب جريحا بقربه ، بعد ان يسمع اصوات الرصاص ، على مرمى عينيه .

وانا ما فكر ان يدفنه ، فان شعورا بالاتحاد بالارض يترتب في اعماقه ، ويدعوه ان يرجئه دفن الطائر حتى تعود المجموعة ، وتعاود الدخول. وهناك يكون الدفن .

ذكرى الايام الماضية : تعود بنا هذه القصة، الى ايام النكبة قبل الـ ٤٨ . وتتحدث عن قرية، وصلة الى يد رجال الانتداب. الرجال الوطنيون يتأهبون للمقاومة . المختار والوجوه التقليدية تتردد وتتساوم . احد القواد العرب يحول دون توزيع السلاح . الشاب ابو طي يدين الضابط والمختار بالكلام الصريح . و (ابو علي) هو بطل القصة : فلاح فقير ، يحب ارضه وامرأته وولده، يعتقد الضابط العربي لكن الثوار يحررونه .

ويستشهد . وبعد مرور الزمن ، نعلم ان ام علي تسكن في مخيم جباليا . انها يعمل معلما (حيث قص ابنه ثمن تعليمه فدادا لبندقية). علي اشترى بندقية . لانه يحتاجها .

ثم قصة اشبه فلسطينية التي تتحدث عن ابطال يلتقون في ساحة المقاومة ، مختلفين كل منهم ، ارتباطات ونوزعات اكثر من عشرين عاما.

ويأخذون في التعرف الى اصوات الرصاص وصداها ، حتى يعتادوها .

وهنا عن ذلك ففي القصص نزعة تقشف واقتصاد ملموسة ، لا يشك قارىء بانها ضرورية ، وإمارة صحة . خاصة ازاء موضوع ، طالما انتهك بالافتعال والادعاء ، والعواطف والكرامات التي لا تقبل الا قليلا ..

(...)

ملاحظات أولى في القصة العراقية الحديثة

منذ اكثر من ثلاث سنوات ، يدور نقاش حاد احيانا وبارد احيانا اخرى ، عن القصة القصيرة في العراق، والتطورات، الفنية والموضوعية ، التي استجدت عليها . واشترك في تلك النقاشات بعض اساتذة الجامعة ، وبعض النقدة ، اضافة الى محرري الصحف والمجلات الادبية في العراق . ولوحظ كذلك ان دائرة الحوار قد اتسعت لتشمل بعض صحافة ومجلات لبنان والجمهورية العربية المتحدة .

فؤاد التكرلي

جليل القيسي

كما ان اتحاد الادباء في العراق ، عقد ندوة مخصصة لهذا الغرض ، حضرها اغلب كتاب القصة ، وادارها الشاعر الفلسطيني خالد علي مصطفى واشترك في اسداء الراي ، الناقدان فاضل ثامر وياسين النصير ، اضافه الى سامي مهدي ـ شاعر ، ورئيس تحرير مجلة المثقف العربي ـ .

ان كل النقاشات حول القصة القصيرة في العراق كانت منصبة حول نتاجات الجيل الشاب، جيل الستينيات ، وعلاقته بالجيل السابق، اي جيل الاربعينات وامتداده جيل الخمسينات .

ومن خلال الاطلاع على ما كتب او نشر حول هذا الموضوع ، ومن خلال القصص القصيرة التي كتبها شباب عراقيون ، والتي نشرت في العراق او لبنان او الـ ج.ع.م او في بعض البلدان الاشتراكية ، نلاحظ ان ظاهرة جيل الستينات، جاءت صحية ، ومعافاة ، وتحمل طابعا جديدا لاضافة القصة بدماء جديدة .

لقد كانت سنوات الاربعينات والخمسينات من هذا القرن، بالنسبة لاوضاع الشعب العراقي، سنوات النضال الجماهيري ، ليس في سبيل ترسيخ الاستقلال الوطني واقامة سلطة الشعب الثورية فحسب ، بل وخلق المناخ الملائم ايضا لايجاد علاقات انتاج جديدة ، مجتمع جديد ، يتمتع فيه الانسان العراقي بكرامته ويحقق فرصته في عيش كريم حر .

وكانت القوى التقدمية في العراق تناضل بلا هوادة من اجل تحقيق هذه الاهداف، مستقطبة في ذلك جموع الشعب الكادح ، بطبقاته الثورية، ومنها فئات الفنانين والادباء والمثقفين . وفي تلك السنوات كان المثقفون والادباء يناضلون جنبا لجنب مع شعبهم وقواه الثورية . وبهذا فانهم اعطوا كل شيء لشعبهم في حدود امكاناتهم وطاقاتهم .

ولقد شهد الوضع الثقافي والفكري في العراق آنئذ ، نشاطا ادبيا غزيرا وواسعا ، اتسم بالجراة ، والثورية ، ومعانقة طموحات الشعب وآماله ، وكانت المجلات العراقية والصحف الممسوح بصدورها آنئذ تنشر قصائد النضال الثوري ، بالاضافة الى القصص التي تتحدث عن عذاب الانسان العراقي : عذابات العامل في المصنع ، والفلاح في الريف ، والمثقف في دائرة اختصاصه

ومعا زاد في نشاط هذه الظاهرة وجود الترجمات، السرية أو العلنية ، للادب الانساني، خصوصا مؤلفات الروائيين السوفيات وبعض كتاب امريكا قبل وقوعهم في طائلة المكارثية المقيتة .

وفي غضون ذلك كله تعرف القراء والمتعلمون على : جعفر الخليلي ، ذونون ايوب ، عبدالملك نوري ، واخيرا ـ وهذا حدث في منتصف الخمسينات ـ تعرفوا الى فؤاد التكرلي .

وكان اولئك الكتاب ـ عدى التكرلي بهذا القدر او ذاك ـ يقدمون ابطالهم بصورة واقعية جدا ، تقرب حد النقل الفوتوغرافي في اكثر الاحيان ، متحدثين عن هموم الافراد يواجهون عجزا ماليا مريعا ، مثلما هم واقعين بنفس الوقت تحت رحمة اجهزة الدولة القمعية وادواتها المعرفية والقانونية .

ان القراءة المقارنة لكتابات هؤلاء ـ عدى التكرلي ـ مع بعض نتاجات مكسيم غوركي مثلا يمكن ان تربنا مدى التأثير الحاسم والواضح لكتابات ومؤلفات الاخير في الاعمال القصصية لاولئك الكتاب . وكان اساتذة الفكر الاكاديمي، خصوصا في اوساط الكليات الادبية ، يعملون، بكل اخلاص ونفان ، لتعميق هذا التهيج بلورته كيما يشكل ظاهرة ادبية ـ عراقية ، اذا جاز هذا التعبير .

لكنهم ، فيما يبدو ، فشلوا في تحقيق هذه الامنية . اذ ظلت اغلبية تلك النتاجات واقعة في دائرة اتهام اساسي وجوهري : ان الانسان العراقي لا يستطيع ان يحيا بالخبز وحده ، مثلما لا تكون اية جدوى في تقديم حالة ساكنة لاوضاع الريف ، بل ان انسان العراق يطرح نفسه الى ابعد من هذه الافانيم ، انه يريد ان يعرف : لماذا وجد ، وما هي مهماته . لكن كاتب القصة آنئذ لم يكن يعكر على الاطلاق :

ان الوعي الخاص بالكاتب كان وعيا خارجيا بالعالم والاشياء ، وكان يعتقد ـ اي الكاتب ـ ان « عرض » حالة الفلاح السائدة يمكن ان تشارك في اذكاء نار الثورة في قلوب الجماهير. وبمعنى آخر فان كاتب القصة كان يتكلم عن « حالة » او عن « وضع » وبقدمه كما هو : باردا ، عليلا بالشعارات ، ودونما دراسة للمعطيات الفكرية التي يمكن ان تحولها القصة ، لكي يكون بالامكان سحب البساط من تحت اقدام الانسان العراقي العادي ، جعله ينكر مرارا وتكرارا في اوضاعه ، بدل ان يقدم له حالة ساكنة ربما تساعده على ايجاد السلوان فيها تبريرا لاوضاعه الشاذة .

وبعبارة افل ايجازا ، لم تكن قصص الاربعينات نحوي اي طابع لانسان متمرد .

غير ان هذه الحالة تطورت ، فنيا وموضوعيا ، في أواسط الخمسينات ، عندما اخذ فؤاد التكرلي ينشر قصصه الجديدة ، التي تعتبر الان التطور الاصيل ، الموضوعي ، لكل النتاجات التي سبقته : هناك مهربون ، واناس عاديون ، لصوص ، وعاهرات أيضا ، يعبرون سهوب العراق وانهاره بحثا عن الامان او في زقاق العجائب المقدسة ، أو من أجل حلم قصير جديده . ولقد تحدث التكرلي عن هؤلاء الشخوص بطريقه تسمح لنا بمعرفتهم عن قرب

لقد أعطى التكرلي أبطاله حرية التحرك الاسع داخل النص بأسلوب تجاوز الحكاية الروائ أسلوب جديد يتذكر فيه البطل عالمه وعلاقاته الناس بشيء من الحرية وبطريقة تضع القا قد حقق تحولا نوعيا في القصة العراقية إذ أخرجها من الاقفطة الابوية التي شدتها لفترة بدون أية مناسبة .

بيد أن هذا كله لم يحقق النتائج الرجوة القصة في العالم او في بعض البلدان العر الاخرى ، كمصر مثلا .

ويبدو أن الظرف التاريخي ، والواق الموضوعي ، اللذين أكتنفا العراق ابان ثو الحقبة ، كانا فوق قدرة ووعي الكاتب العراقي

وهذا ما يشكل ادانة صريحة لقصور تلك الاعمال رغم الفوارق على اهميتها الوقيفية كادانة تعبيرة ملتزمة .

وفي أوائل الستينات ظهر في العراق كتا جدد ، كتاب شباب ، بدأوا يكتبون القص باساليب جديدة ، ويطرحون كذلك مضامي جديدة ، معتقدين ان الجيل السابق قد انهى دوره بفعل الظروف التي استجدت بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .

كان اغلب كتاب الستينات من الشباب اليساري الذين استرشدوا بالنظرية الطبقية ، أو الذين انفتحوا عليها وبدأوا بدراستها بصورة تدريجية . ولهذا نجد انهم كانوا مع نضالات شعبهم في الزمن الذي تلى حدث ١٤ تموز. فاصابهم ما أصاب شعبهم من تنكيل وسجون وارهاب. ووجد البعض منهم انفسهم في المنتدى وامام الحجز الاضطراري يكتبون القصص وينشرونها في مجلات وصحف بغداد وبيروت .

وابتداء من أوائل الستينات وحتى منتصفها تعرف اغلب كتاب القصة الشباب الى مخلد سجون العراق ، بينما كانت الحركة الشبا التقدمية تواجه انكساات ونكوصات مؤلمة ومخيفة فتركت كل هذه المواقف المؤسفة تاثيرات مختلفة في نفوس الكتاب الشباب .

من هنا ظهر الحزن والياس والتمرد في كتابات الشباب ، وشهد عام ١٩٦٥ نهوضا غريبا لهذا الاتجاه ، تمثل في القصص الكثيرة التي نشرت في ـ ملحق الجمهورية الادبي ـ وجريدة الثورة العربية ، وبعض المجلات اللبنانية .

لقد وجد الشباب انفسهم ذات يوم كالاتي : تحطمت قيمهم ، واصبحت اهدافهم سجينة الارهاب والتزييف ، وسقط عشرات الالوف من المناضلين . وهذا ما دعاهم الان بنساءلوا : لماذا نحارب كل هذا ؟

وبدل ان يجددوا ، برؤية ثورية ، الجواب على السؤال (لماذا) تلك ، انسحبوا الى انفسهم ، الى اعمالهم ، واخذوا يكتبون تجاربهم ، وتجارب رفاقهم في حزن ويأس قاتلين .

على ان بعضا من هؤلاء الشباب انتبهوا الى انفسهم وبدأوا ينهضون مجددا ، رغم ان هذا النهوض يتسق معه في ان واحد خط تنادي بالثورية واعتماد التمرد ، وعدم الاذعان بالمقولات « الجامدة » ، او الارتكان الى صيغة ادبية محددة .

لقد بدا هؤلاء الشباب يمنحون انفسهم للحرية ولتغيير العالم دون اشتراطات ، معتقدين ان وجودهم ، ومعنى هذا الوجود ، انما يتحقق بالاتي ، بالارتباط بالمستقبل ، من خلال بعث التمرد في نفوس الساخطين والساقطين والمتمردين الذين لا يعرفون اين المسير . ولهذا نلاحظ ان اغلب قصصهم ذات نفس متمرد ، يؤكد على الحرية ، وعلى طرح الانسان بوجه الارهاب واساليب النظام السياسي المتخلف بهذا القدر او ذاك .

وفي عام ١٩٦٨ ، أي بعد الهزيمة ، شهدت القصة القصيرة في العراق تطورا ، فنيا وموضوعيا ، ملحوظا ، انقذ جسد القصة من السام واليأس والفوضى ، ليدعها تقف على رجليها عندما اقدم محمد خضير وجليل القيسي واحمد خلف وعبد الرحمن الربيعي (في اعماله الاولى) وعبد الستار ناصر (في مجموعته الاولى ـ الرغبة في وقت متاخر) على كتابة قصص جديدة حقا

□ في الموضوع : اتجه بعض هؤلاء الكتاب الى الخصائص المحلية ، الفولكلور والعادات والتراث الشعبيين ، بصياغة ملائمة ، تبتعد عن الطرف التاريخي الخاص بها ، لتضعه في مضمون عصري يخدم الثورة والتغير ان لم يكن صورا هاكلا لها .

□ في الشكل : كانت هناك أكثر من مغامرة شكلية ، وذهب بعضنا الى التغريب كثيرا رغم ان هذا الامر ظاهرة صحية من ناحية المبدأ ، على ان بعض كتاب القصة في العراق اخذوا « بزابدون » في هذا الاتجاه ، فكان ان نجد تلك الهلوسات الغريبة على انها شكل ، وتلك « الجمل الانشائية عديمة المعنى » على انها شكل ايضا . على ان هذه النتوءات الغريبة عن جسد القصة العراقية في طريقها الى الزوال ان لم اقل ان أصحابها لا يجدون الان أنه فاقلة للعداء امامها !

لقد ذهب أغلب شبابنا أول الامر لاستعمال المونولوج الداخلي، ثم اسلوب همنغواي ـ الجمل القصيرة المبتدئة بفعل مضارع غالبا ـ وكان بطل القصة أول الامر هو الكاتب دوما . وما ان حان عام ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ ، حتى بدأت القصة القصيرة تأخذ بعض ملامحها وشروطها الاولية ، في فهم وربي جيدين لجدارة القصة في عالمنا المعاصر .

لقد بدأنا نكتب عن مدن غير موجودة على الاطلاق . اخذنا ((ننشيء)) مدنا جديدة على خارطة العراق : مدن تشيع فيها البراءة ، يشاع فيها الحب ، مليئة بالرجال القادمين في الليالي القمراء أو الظلماء في نزهة المحارب الذي بود تغيير العالم

واسطيع ان اقول هنا ، وبكل ثقة ، ان بعض محاولات محمد خضير وجليل القيسي واحمد خلف ، قد تعدت البحث في اخلاقية البرجوازي الصغير ، لتتحدث عن مسائل قريبة من الانسان العراقي وهو يواجه مشاكله الاجتماعية والكونية. على ان هذا كله لا يمنعنا من طرح السائلين التاليتين :

□ الاولى : هي ان بعض كتاب الجيل الشاب وان كانوا في السنوات الاولى يطمحون لاكمال الشوط في مغامرتهم الادبية الا انهم ، بعد ذلك، وجدوا انفسهم يسقطون في حبائل التكرلي ، وبعضهم عاد ادراجه الى عبد الملك نوري او قاسم الدباغ

ونلاحظ ان كتابا نهم خصوصا مجموعات : يوسف الحيدري وخضير عبد الامير وموفق خضر (والاعمال الاخيرة لعبد الرحمن الربيعي) قد بدات تشكل امتدادا ، سطحيا في غالب الاحيان، لقفزة فؤاد التكرلي . ومن المؤسف ان يبادر أساتذة النقد الاكاديمي في الجامعة الى تبني هؤلاء الكتاب ويعملون على « صياغتهم » مجددا ، قائلين فيهم روح المغامرة ، والتمرد ، بحيث انهم اصبحوا الان علامات تاريخية لتطور القصة في العراق ليس الا .

□ أما المسألة الثانية : فهي مواصلة بعض الشباب لشرف المغامرة ، وأخص منهم بالذكر جليل القيسي ، أحمد خلف ، وموسى كريدي وغيرهم من الذين تربوا في مدرسة « الكلمة » ويواصلون الان عملية السر بالقصة .الى خطى حثيثة في التقدم .

وفي قناعتي أن الفضيلة الاولى لهؤلاء انهم نجوا من لعب النقد الاكاديمي ، ورفضوا الموضوع فيها ، محققين بذلك تحولا نوعيا في القصة العراقية ، طارحين انفسهم كسهام غير قابلة للانحناء .

في قصص جليل القيسي (صهيل المارة حول العالم) نجد ذلك التوق الغريب لانسان العراق كيما يجد نفسه متحققا وبفعل ارادي منه في المواقف : السياسية ، الحب ، الجنس ، البحث عن الله الضائع في زحمة المدن .

وفي قصص احمد خلف نلاحم مع الابطال العائدين من حرب خاسرة ، أو من المعتقلات او من السجون ، فنجد فيهم اليأس والضعف ، لكننا نجد فيهم أيضا موقف الانسان وهو يجاهد لان يظل واقفا على قدميه رغم قساوة جراحاته .

اما في قصص محمد خضير ، فاننا نجد عالما جديدا ، مليئا بالرموز والحكايات الشعبية ، عن جنود يسافرون في فظارات ليلية الى اماكن غير محددة ، أو نسوة يقفن أمام العتبات المقدسة ، مرميات في أوفيانوس هائل من التأمل الديني الشفيف . ان محمد خضير ، باسلوبه المشيع بالحلم والرجوع الى الماضي ، واحد من الطليعة الادبية الشابة التي تستطيع اضافة دم جديد للقصة العراقية خصوصا وللقصة القصيرة العربية عموما .

ان بعض النقاد ، خصوصا منهم أصحاب المدرسة التقليدية ، ينظرون الى هذه المجموعة بشيء من الحذر ، بينما نجد أغلب المثقفين والذين يتعاطون النقد في العراق يشرون الى هذه الشمعة بكل فرح وغبطة .

ان علامات جديدة ، مضيئة ، تولد الان في العراق ، في مجال القصة القصيرة ، يقوم بها شبان آمنوا بالانسان والثورة بديلا لكل الاحلام ، ووفق ما تطرحه الحياة المعاصرة من تطور في الاداب والفنون .

عرس الدبابات

شعر : مازن شديد

ردي عن عينيك الدمع ..
يا امي في هذا الزمن الخوان ..
لا يجدي حتى لو سالت من عينيك
الدمعة دم ..
في عمان

***

لا تبكي يا امي جاء الموكب ..
يحمل نعش عروستك الحلوة ..

ما زالت تلبس يا امي فستان العرس..
ما زالت تسطع كالشمس ..
لفوها بوشاح احمر ..
بالدم منقوع يا امي ..

بالدم .. معطر ..
حملته اليها الدبابات هدية ..
من عمان ...

***

وجدوها في عرض الشارع ملقية
فقأت عينيها الدبابات ..
قطعت نهديها الدبابات ..

منعوا عنها حتى شربة ماء ..
يا امي في عمان ..
تركوها للغربان السوداء ...

***

قالوا يا امي ان الحلوة كانت تصرخ..
نادت كل الجيران واهل الحارة ..

لكن بقيت يا امي تنزف.. تنزف..
عميت عنها فجاة ..
كل الاعين ..
صمتت عنها فجاة ..
كل الاذان ..
تركوها في عمان ..
تبحث عن مفتاح للاقفال ..
تستجدي الرحمة للاطفال ..
لكن عبثا يا امي لم تلق جواب..
وانهارت عند الابواب ..
كانت تتطلع نحو الله ..
لكن.. عبثا يا امي ..!!

***

واخيرا جاءتها الرحمة ..
من قلب العتمة ..

طابور الدبابات الهمجية ..
دبابات الدم ..
دبابات الدم ..

***

لكن ...
جرح الحلوة يا امي ازهر نجمة ..
في قلب ملايين الثوار ..
نجمة نصر ..
تسطع في عيني عمان ..
نجمة نصر ..
للانسان ...

كويت

صدر عن منشورات "مواقف" بالتعاون
مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

شهادة الاطفال في زمن الحرب

اعداد : منى السعودي
الاخراج الفني : فلاديمير تماري

اطلب نسختك على : ص.ب ١٤٨٩ - بيروت
الثمن ١٠ ل.ل